الدرس الرابع عشر/ تجريد التوحيد المفيد للمقريزي

قراءة الطالب: الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد: قال المصنف-رحمه الله تعالى-:

"وبالجملة فهذا باب واسع، والمقصود أن كل من عبد مع الله غيره فإنما عبد شيطاناً قال الله تعالى :{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدم أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ}، فما عبد أحدٌ أحداً من بنى آدم كائناً من كان إلا وقد وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله تعالى، وذلك غاية رضا الشيطان؛ ولهذا قال تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الجِْنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإنس} أي: من إغوائهم وإضلالهم وقال:{ وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الإنس رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أجلت لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}، فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذى لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يُغفر بغير التوبة منه، وأنه موجب للخلود في العذاب العظيم، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهى عنه فقط، بل يستحيل على الله ﷻ أن يشرِّع عبادة إله غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله.

الشيخ –حفظه الله–: إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أما بعد:

المعاصي لها دواعي، ودواعي ثابتة يمكن للعبد أن يتغلب عليها، وأن يبتعد عنها، وأن ينجيه الله تعالى من شرورها، وهي النفس الأمّارة بالسوء، العبد إن ثبت في الميدان وجاهد نفسه فتنقلب إلى نفس مطمئنة، لا تحركه ولا تبعثه إلى العمل السيء، والأمر الآخر: سيئات العمل، فـ للعمل السيء سيئة أخرى أكبر منها، لذا كان يقول بعض التابعين في الكوفة: "إني لأعمل الطاعة طمعاً في أختها التي هي أكبر منها، وإني لأترك المعصية خوفاً من أختها التي هي أكبر منها"، ولذا كان النبي ﷺ في اجتماعات الناس والمحافل العامة ،كان دائما يبدأ بقوله في خطبة الحاجة "ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا"، فسيئات العمل يمكن للعبد أن يَخلص منها، بأن يحمل على نفسه وأن يجاهدها، {وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ}، لكن هنالك سبب مهم، وهذا السبب باقٍ إلى يوم القيامة وهو الشيطان، هذا الشيطان ميؤوس من أن يصلح، إلا أن يرمي الإنسان بنفسه ويفر إلى ربه ويتعوذ من شره، ويلوج بحماه وقواه من شر الشيطان الرجيم، فبعد أن ذكر المصنف الشرك، وذكر أن المشركين يجمعهم التعطيل وأنهم لا يقدرون الله حق قدره، وأنهم يسيئون الظن بربهم ﷻ، عرّج بلفتة حسنة طيبة، وبيّن أن غاية الشيطان أن يكون الناس معه، وأن يكون مآلهم مآله، وأن يكونوا في النار معه، نسأل الله ﷻ العفو والعافية، ففي الحقيقة أن كل من عبد غير الله ﷻ هو في حقيقة أمره إنما يعبد الشيطان الرجيم، {إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدا}، حقيقة أمر العابد الذي يعبد الإناث التي كان بعض العرب يعبدون الأصنام، وبعض الأصنام كاللاّت صنم أنثى، اسمه أنثى (اللاّت)، هم في حقيقة أمرهم يعبدون شيطاناً مريدا، قال الله ﷻ: {إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدا}، الله في المحشر يقسم الناس كل يتبع ما كان يعبده، المنافقون يعلمون أن المؤمنين هم على حق، يبقوا مع المؤمنين، فلما يؤمرون بالسجود لا يستطيعون، تصبح ظهورهم طبقاً لا يستطيعون

أن يسجدوا لله ﷻ، والله ﷻ يقول اذهبوا إلى من أمركم بهذا، اذهبوا وأنتم مع الشيطان، ولذا قال الله ﷻ: {وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وقال تعالى: {أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ}، يجب على كل مسلم أن يتخذ الشيطان عدواً له، الشيطان لا يقبل أن تبقى على حياد، إما أنك من حزبه، وإما أنك تسير معه، وإما أنك عدو له، فالله ﷻ يقول: {أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ}، فما عبد أحد من بني آدم كائناً من كان إلا وفي حقيقة الأمر أن هذه العبادة كانت للشيطان، والشياطين والإنس يستمتع بعضهم بعضاً، ولكلٍ غرض في هذه الطاعة، لماذا العبادة للشيطان؟ لأن الشيطان هو المسبب، وهو الذي زيّن عبادة غير الله ﷻ، فالذي عبد الجن، أو عبد الأصنام، أو عبد النجوم، أو عبد الأشخاص، ولا ينتهي العجب أن بعض الفرق كاليزيدية لها وجود وحضور من قديم، اليزيدية تعبد الشيطان هم يقولون نحن أصالة نعبد الشيطان، لو سألت أي يزيدي ما معبودك؟ من تعظم؟ قالوا نعبد الشيطان!، لأن الشيطان له شر، ونحن نتوقى شره بعبادته، نسأل الله العفو والعافية، أُعبد ربك ﷻ لُذ بربك !، لذا شعار المسلم أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ومعناها: "يا رب أنا أعوذ بحماك وألوذ بقواك على هذا الشيطان الرجيم"، الشيطان له صور خفية، ومما يذكر ويؤثر، وذكر هذا غير واحد من أهل العلم عن العالم، العابد، الزاهد، القدوة (عبدالقادر الجيلاني) -رحمه الله- وذكره بخير الإمام ابن رجب في كتابه (الذيل على تاريخ الحنابلة) وبيّن أن الناس يكذبون عليه، فجاءه الشيطان وهو في عبادة فقال لعبد القادر: "يا عبد القاد أسجد لي فقد رفعت عنك التكليف"، وهو عابد

وعالم، لو كان عابداً غير عالم لوقعت المصيبة، ولعله ردد مع بعض من يردد هذه الأيام رفع عني بالتكليف، يقول الشيخ (محمد أمان الجامي): "كان لنا شيخ لما تأتي الصلاة يقول قوموا صلوا، فأنا أصلي في مكة، أذهب لمكة وأصلي في مكة، قال الشيخ: وكنا نصدق وكنا نعظم الشيخ، ونرى أن هذه كرامة عظيمة، قال فذهبت وتتلمذت عند الشيخ (عبدالرحمن السعدي) –رحمه الله، –صاحب التفسير، الإمام الكبير المبارك– يقول: فأخبرته قال: سبحان الله، أما انتبهتم أن وقت الصلاة عندكم هو غير وقت الصلاة في مكة"، المسألة واضحة، وقت الصلاة عندكم في إفريقيا غير وقت الصلاة في مكة، فالشياطين تلعب بالناس، ولما الشيخ يكذب مصيبه من المصائب، هذا الكذب على نفسه والكذب على دينه، والكذب على ربه، وبعض الناس يكذبون يقول: أنا رفع عني التكليف، قال الشيطان: "يا عبد القادر أسجد شكرا لله، أسجد فقد رفعت عنك التكليف، قال الشيخ عبد القادر: خسئت ، أنت الشيطان، لا يرُفع التكليف عن العبد حتى يموت، فقال له الشيطان: لقد نجوت بعلمك يا عبد القادر، فقال الشيخ عبد القادر: خسئت لقد نجوت بفضل الله ورحمته ولم أنجو بعلمي"، أراد أن يوقعه، فالشيطان له طرق، وطرقه منها الظاهر، ومنها الباطن، وقد يأتيك على وجه نصيحة مثل إخواننا، الله يغفر لنا ولهم ويعافي جميع المسلمين، "الموسوسين" الشيطان يعذبه بالوسوسة، ويأتيه بصورة ناصح، أنت ما صليت، أنت وضوءك صحيح !، أنت وضوءك غلط!، جاءني إمام مسجد يقول لي:" أدخل الحمام وقت صلاة الظهر، وأبقى فيه إلى وقت العصر ، وما استطعت أن أتوضأ، وأخرج لأصلي الظهر، أريد الحرص على الطهارة"، هذا صنيع الشيطان، أنه من أشرك بالله ﷻ فهو يعبد الشيطان، ولكن الشيطان يزين لهم آلهة الباطل، قال: "هذه إشارة لطيفة إلى السِر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر"، لماذا الشرك أكبر الكبائر؟ لأن صاحبه عند التحقيق إنما هو يعبد الشيطان، وهذا هو

سر أن الشرك هو أكبر الكبائر، فالشرك في حقيقة أمره باطل، ولم يقم على براهين، ولا على أدلة، ولا يوجد لصاحبه أدنى شبهة، وإنما هو قائم على شبهات ودعايات كاذبة، فلا شك أن مآله إلى اضمحلال، وإلى زوال، بخلاف التوحيد، التوحيد قائم على ما يوافق العقول الصحيحة، والفطر السليمة، وصاحبه يجد انشراحاً في صدره، ولذة، وطاعة، وعبادة، في التمسك بالله ﷻ ، وفي سؤاله واللجوء إليه، قال: "وإنه ليس تحريمه وقبحه لمجرد النهي عنه فقط"، الشرك قليل، ولكن ليس قلته فقط لوجود النهي عنه، فالشرك يخالف الفطرة، ذلك أن المشرك وضع العبادة وصرفها إلى غير مستحقيها، العرب يقولون عندنا ثلاثة أشياء: (أمر، إلتماس، دعاء)، أمر: من الأعلى للأدنى، إلتماس: من المساوي للمساوي، فالإنسان للإنسان التماس، دعاء: أن تقول: "رب اغفر لي"، دعاء وليس أمر والدعاء يكون من الأدنى للأعلى، أن تساوي الله وأن تصرف العبادة لغير الله هذا أمر قبيح في العقول، وأن تسوي الكمال من كل وجه بأسمائه وصفاته وأفعاله بالناقص من كل وجه، هذا ظلم، لذا الشرك ظلم عظيم وهو قبيح، وذلك لأن الشرك إنزال الأمور في غير منزلها، المصنف بعد أن ذكر المشركين وذكر الباعث على شركهم، وتدرج معنا.

انتقل المصنف إلى أقسام الموحدين، وذكر أقساماً للموحدين، وجعل هذه الأقسام دائرة على أصلين اثنين، وهذان الأصلان مذكوران في قول الله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، فالناس من حيث {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} أربعة أقسام، القسم الأول:من جمع بين العبادة والاستعانة، وهذا الصنف أسعد الناس، الثاني: أشقاهم وأتعسهم من ليس له نصيب من العبادة ولا الاستعانة، الصنف الثالث: من له عبادة وليس له استعانة، مثل طالب العلم المتحمس، ومررنا في هذه المراحل، أسأل الله أن يغفر لنا ويرحمنا، يُقبل الإنسان بكله وكلكله على العلم، يبدأ يطلب العلم بحماس، ولا يعرف الاستعانة بالله، ترى من العلم عبادة وفضل دون استعانة، ينشغل بطلب العلم

أسبوع أسبوعين، شهر شهرين، ثم ينقطع، العلم ثقيل ولا يسع العلم إلا وعاء الحلم، من ثِقل العلم لا يوجد إناء في هذه الدنيا يتسع له، العلم ثقيل ومن ثقله لا يسعه إلا إناء الحلم، أن يكون صاحبه حليماً، فيبدأ الطلب ثم ينقطع، يبدأ يدرس الفقه، يدرس المياه وأنواع المياه أقسام المياه ويخوض في المياه ويغرق في المياه ولا يخرج منها، والسر والسبب أنه ما استعان بالله، ما أجمل العابد في جميع أنواع العبادة، ولا سيما في طلب العلم أن يبرأ من حوله ومن قوته وأن يلجأ إلى ربه، هذا الصنف الثالث عنده علم وليس عنده استعانة، صنف رابع: عنده استعانة وليس عنده عبادة، فالثالث والرابع ناقصان، والأول فائز، والثاني هالك خاسر، الذي ليس عنده لا علم ولا استعانة، والمصنف عالج هذه الأصناف بتلخيص وتخليص واختصار، وتهذيب لكلام الإمام ابن القيم من كتاب (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين)، ابن القيم ألّف كتاباً وهو مطبوع، وهو كتاب دقيق ومهم ويحتاج لشرح، لوجود خفايا فيه، ذكر فيه منازل إياك نعبد وإياك نستعين، وكلام المصنف الآتي إلى آخر الكتاب زُبد وتلخيصات مهمات ونفيسات، الإمام ابن القيم له كلاما علمياً دقيقاً لا يفهم إلا بالتنبه والتيقظ إلى كلامه، ونأتي إن شاء الله تعالى عليها ونشرحها في حينها، ونشرح هذه الأصناف الأربعة بإذن الله تعالى.

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله– "**واعلم أن الناس في عبادة الله تعالى والاستعانة به على أربعة أقسام، أجلها وأفضلها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها نهاية مقصودهم؛ ولهذا كان أفضل ما يسأل الرب تعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذى علمه النبى صلى الله عليه وسلّم لمعاذ بن جبل فقال» :يا معاذ، والله إنى أحبك، فلا تدع أن تقول في دبر كل صلاة :اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" ، فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته تعالى":**

الشيخ –حفظه الله–: إذن، أنفع الدعاء طلب للعون على مرضاته، وأسعد الخلق من حقق قول الله:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، إياك: تقديم المفعول على الفعل، وتقديم المفعول على الفعل يفيد الحصر، وذكرت لكم أن أسباب الهداية خمسة: (المحبة، والرجاء، والخوف، وأن لا تصرف العبادة إلا الله، وأن لا تستعين بعبادته إلا به)، العابد لما يقبل على المسجد ويسمع المؤذن ينادي ويقول: "حي على الصلاة، حي على الفلاح" ماذا يقول؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، أنا ما جئت إلا بحولك، أنا ما جئت إلا بقوتك، {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} هذه يسميها العلماء علّة غائية، {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} يسميها العلماء علّة فاعلية، والعلّة الغائية هي التي يكون من أجلها فعل الشيء، فالله خلقنا لنعبده، {وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، وقدّم الله الجنّ على الإنس، لأن الجن خلقوا قبل الإنس، {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} قالوا هذه علّة فاعلية والعلّة الفاعلية التي لا يمكن للعبد أن يحصِّل الشيء إلا بها، فالعبادة علّة غائية، والاستعانة علّة فاعلية لا يمكن أن تُحصّل الغائية التي خلقك الله من أجلها إلا بها، من دونها لا يمكن أن تحقق هذه العلّة، فالسعيد من قال بلسانه وبقلبه، وهذا يُشعر العبد بضعفه، ومسكنته، وحاجته إلى الله ﷿، قال: "أجلّها وأفضلها أهل العبادة" والعبادة: اسم جامع لكل ما يحب الله تعالى ويرضى من الأقوال وآلافعال القلبية ، فهذه هي العبادة، والاستعانة بالله عليها، أن تستعين بالله ﷿ والاستعانة فيها توكل على الله ﷿، ومما ينبغي أن يذكر وأن ينبه عليه، أن الاستعانة هي جزء من العبادة{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، وهذا يسميه علماء العربية عطف الخاص على العام، فخص العابد الاستعانة وقصدها، لأن العبادة لا يمكن أن تتحقق إلا بها، والاستعانة جزء من العبادة، لكن الله علّمنا أن نقصدها بالسؤال لأنها هي المقصود الذي يتحقق من خلاله العبادة التي سميناها العلّة الفاعلية، ما من أحد في الكون إلا يستعين بالله، لكن من الخلق من يستعين

بالله برزقه، وحياته وملذاته، وشهواته، ومنهم من يستعين بالله على عبادته، فعُلم أن الباقي مقدم على الزائد، قال بعض الصالحين: "لو كانت الدنيا من ذهب، والآخرة من خزف، والذهب فانٍ والخزف باقٍ لحُقَّ للعاقل أن يقدم الخزف الباقي على الذهب الفاني؛ فكيف لو كانت الآخرة من ذهب والدنيا من خزف!"، فالعاقل يقدم الباقي على الفاني، من أحب الأدعية إلى الله ﷻ أن تستعين بالله على عبادته، لما يرى الله صدقك، وترفع يديك، وتتذلل له، تقول: يا رب أنا ضعيف يا رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وأنت صادق، فالله ﷻ لا يخيبك، الله ﷻ يؤيدك ويقويك ويعينك، المهم ألا تتكبر على أمر الله، وألا تغتر بنفسك، وألا تغتر بقوتك، وأن تستعين بالله ﷻ، ولذا النبي ﷺ قال لمعاذ: "يا معاذ والله أني أحبك، -كفى فخراً لمعاذ أن يحبه رسول الله ﷺ -، فلا تدع أن تقول في دبر كل صلاة" اختلف أهل العلم في دبر الصلاة هل هو خارجها، أم هو في داخلها ؟ والراجح أن الدبر من داخل الماهية وليس من خارجها، يعني بعد ما تتعوذ من الأشياء الأربعة: "اللهم أني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال" وقبل أن تسلم تقول: "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"، فدبر الشيء جزء منه، يعني هذا الذكر يقال قبل أن تسلم، قال: "فلا تدع أن تقول في دبر كل صلاة، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"، السعيد في هذه الحياة من علق قلبه بذكر الله، وسأل ربه أن يشكره وأن يرزقه حسن العبادة، وحسن العبادة هي المذكورة في هذا الكتاب بعد الأصناف الأربعة، حسن العبادة أن تجتمع فيك الإخلاص والاتباع، أن تكون مخلصاً في طاعة الله ﷻ، وأن تكون كذلك متبع لسنة النبي ﷺ، فهذا الصنف هو أحسن الأصناف، لأن الله جل في علاه كان معبوداً، ولأن الله ﷻ كان مستعاناً به، ويحققون قول الله ﷻ: {إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ}، ويحققون قول الله ﷻ: {فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ

عَلَيۡهِۚ} ويحققون قول الله ﷻ: {عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ}: توكلت عليه وإليه أرجع، سر هذا الباب، أن تعلم علم اليقين أن الله أعانك، ولولا هذه الإعانة ما استطعت أن تعبده ﷻ ، فالفضل في الأول والآخر والظاهر والباطن إليه ﷻ، فلا ترى نفسك على الناس، ولا تعجب! لذا قال أئمة التحقيق: {إِيَّاكَ نَعۡبُدُ}: فيه براءة من الرياء {وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ}: فيه براءة من العُجب، بعض الناس يرى نفسه فوق الخلق، ويرى نفسه أنه وفِّق للطاعة لأنها منه، هذا مخذول وهذا لا يثبت على عبادته ولا طاعته، ذكر لنا النبي ﷺ قصة رجل رأى رجلاً يعصي، فقال: "إن الله ﷻ لا يغفر له، فأوحى الله إلى نبي ذاك الزمان أن قل لفلان أن الله ﷻ قد غفر له وأحبط عملك"، تصبح تقول فلان في النار، فلان لا يهديه الله، هذا تألى على الله، وأنت يا مسكين ما عبدت الله إلا بإعانته وبقوته، فاعرف قدرك، لا توزع الجنة والنار على الناس، اعرف قدرك واعلم مسكنتك، وقل يا رب اغفر لي، يا رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، هذا الصنف الأول، الصنف الثاني: وهو سبب وجود شيء من العبادة دون الاستعانة، فهو فساد في المعتقد.

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله- "**ويقابل هؤلاء القسم الثاني: المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة لهم ولا استعانة، بل إن سأله تعالى أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، والله ﷻ يسأله من في السموات والأرض، ويسأله أولياؤه وأعداؤه، فيمد هؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلقه إبليس، ومع هذا أجاب سؤاله وقضى حاجته ومتّعه بها، ولكن لما لم تكن عونا على مرضاته كانت زيادة في شقوته وبعده، وهكذا كل من سأله تعالى واستعان به على ما لم يكن عوناً له على طاعته، كان سؤاله مبعداً له عن الله؛ فليتدبر العاقل هذا، وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامته عليه، بل قد يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه ويكون منعه منها حماية له وصيانة، والمعصوم من عصمه الله،**

والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا: أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو يجهل حقيقة الأمر إذا رآه ﷻ، يقضى حوائج غيره يسيء ظنه به تعالى وقلبه محشو بذلك وهو لا يشعر، وأمارة ذلك حمله على الأقدار وعتابه في الباطن لها، ولقد كشف الله تعالى هذا المعنى غاية الكشف في قوله تعالى:{ فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ}، أي: ليس كل من أعطيته ونعّمته وخولته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليّ، ولكنه ابتلاء مني وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه وأحوله عنه لغيره؟، وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذاك من هوانه عليّ ولكنه ابتلاء وامتحان منى له: أيصبر فأعطيه أضعاف ما فاته؟ أم يتسخط فيكون حظه السخط، وبالجملة فأخبر تعالى أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه ﷻ يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لهوانه عليه، وإنما يكرم ﷻ من يكرم من عباده، بأن يوفقه لمعرفته ومحبته وعبادته واستعانته، فغاية سعادة الأبد في عبادة الله والاستعانة به عليها".

الشيخ –حفظه الله–: هذا الصنف من أخسر الأصناف، هم الخاسرون، وهذا الصنف ليس له نصيب من {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، قال: "المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبادة لهم، –أي فلا عبادة تليق ويستحقها الرب ﷯– ولا استعانة" ليس المراد نفي الاستعانة بالكلية، تأمل معي تتمة الكلام قال: " ولا استعانة بل إن سأله تعالى أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته"، فالمراد: ولا استعانة نافعةً لهم في دينهم، هو ما أراد نفي مطلق الاستعانة، وهذا الصنف له استعانة ولكن هذه الاستعانة محصورة في همِّه على الدنيا وحطامها وملذاتها وشهواتها، وله استعانة، لكن على الدنيا، وهذا هو ظلم الكافرين، كما قال النبي ﷺ : "الدنيا سجن المؤمن

والدنيا جنة كافر" ، لو سألنا سؤال "الدنيا سجن المؤمن" ألا يوجد مؤمنون منعمون، أصحاب جاه ومال وملذات وشهوات، وملك وما شابه؟، يوجد، ألا يوجد كفار بؤساء أصحاب بؤس وفقر ومرض؟ يوجد، كيف نفهم "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"؟ لو أخذنا أكثر الناس نعيماً من المؤمنين في هذه الحياة منذ أن خلقها الله إلى أن أفناها وانتبه ! لا يلزم أن يكون هؤلاء الأنبياء ولا يلزم أن يكون هؤلاء صلحاء، لأن معيار التفضيل ليست الدنيا، أخذنا أنعم إنسان من المؤمنين فغمسناه في النار غمسة واحدة، فسألناه هل رأيت نعيما قط؟ وهو أنعم الناس في الدنيا، قال: ما رأيت نعيماً قط، اعكس، لو أخذنا أبأس الناس وأشد الناس بؤساً وحرماناً وفقراً ومرضاً، وغمسناه في الجنة غمسة واحدة، ثم سُئل هل رأيت بؤساً قط؟ قال: ما رأيت بؤساً قط، وهذا من معاني الدنيا "سجن المؤمن وجنة الكافر" المؤمن مهما كان متنعما في الدنيا، الدنيا سجن له {وَٱلۡأَخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ}، أبقى للعبد، فهذا الصنف من الناس عنده استعانة، لما قال "ولا استعانة" نافعة، لأنه قال بعدها: "بل إن سأله أحد واستعان به" قال: "فعلى حظوظه وشهواته"، {مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُوما مَّدۡحُورا ۞ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِن فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورا}، {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ}، الله ﷻ يعطي، فالدنيا عجيبة ومن عجب الدنيا أنك إن أقبلت عليها فرت منك، وإن ابتعدت عنها جاءتك راغمة، والزاهد ليس الذي لا يملك الدنيا، الزاهد من كان حاله مع ربه هو هو، سواء كان غنياً أو كان فقيرا، فصدره فيه جنة الرضا عن الله ﷻ فيما قدّر عليه، هذا هو السعيد فمن عامل الناس بكبر وعلو فهذا من طغيان المال، المال له طغيان ولا يكبح هذا الطغيان إلا الصلاح، وإلا أن تعرف حقيقة الدنيا وإلا أن تعرف حقيقة الرضا عن الله ﷻ،

قال: "والله ﷻ يسأله من في السماوات والأرض"، {يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}، الله كل لحظة يرفع أقواماً ويسقط آخرين، يحيي أقواماً ويميت آخرين، يبسط الرزق لأقواماً ويقدر لآخرين، فكل يوم هو في شأن سبحانه، كل الخلق يسألون الله ﷻ، حتى الشياطين ،كما قال الله ﷻ : {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا}، الشيطان رسول لله، وفق سنته في قدره وفي كونه، كما أن الأنبياء رسل الله في شرعه وفي مشيئته التي يحبها ويرضاها، الشياطين رسل للكافرين، الشيطان رسول لله للكافرين في قدرته الكونية الشرعية، التي فصلنا وبينا الفرق، لا يوجد شيء في الكون بأكمله وكله وكلكله خارج عن قدرة الله ﷻ، ولذا ينبغي للعبد شاء أم أبى إن كان عاقلاً، أن يعلم حقيقة فقره، وأن يعلم أنه لا غنية له عن ربه والاستعانة به على طاعته، قال: "والله ﷻ يسأله في السماوات والأرض ويسأله أولياؤه المتقون وأعدائه الكافرون فيمد الله ﷻ هؤلاء وهؤلاء"، قال الله ﷻ :{وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَة وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَة وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}، الكافر يقول: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} يريد الدنيا لم يقل حسنة، والمؤمن يقول: { رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، لعل بعض الناس يحزن لأن الله ما هيأ له ليزني، يستعين بالله على الزنا، بعض الراقصات تقول: "أنا آكل من عرق جبيني"، فبعض الناس لا يفهم ، وبعضهم يقول: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} حسنة: ارزقني مالاً، وارزقني جاهاً، ارزقني علماً، ارزقني فضلاً منك يا الله، يكون في عاقبة أمره حسنة، يكون معيناً لك على طاعتك، {وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} وأخيرا، الصنفين سيحشرهم الله ﷻ ويحاسبهم، قال: " وأبغض خلقه إبليس، ومع هذا أجاب سؤاله وقضى حاجته ومتّعه بها"، استجابة الله لإبليس ليس عبودية، ليس لأنه سأل الله وتوسل إليه بالسؤال، وعبد الله ﷻ، لا، وإنما استجابة الله لإبليس فرع من

فروع الربوبية، سأله على أنه عبد واستجاب الله له، لأن الله سيد، قلنا في الدرس الأول في شرحنا قلنا الله ﷻ الرب له أربعة معاني تذكروا هذه وهذه تفيدنا في الصنف الثالث الآتي بعد قليل، قلنا الرب: (السيد، والرب المالك، والرب المربي، والرب المنعم، والمتصرف) وقلنا الربوبية في الملك والسيادة كل الخلق فيه سِيان، وفي التربية الله يربي المؤمن غير ما يربي سائر الخلق، الله يربي المؤمن تربية خاصة ﷻ، إبليس قال: {قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، استجاب الله ﷻ له واستجابته ليست من قول الله: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}، إنما فرع من فروع الربوبية، فقال إبليس: {قال أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قال إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ}، أجاب سؤاله وقضى حاجته ومتعه بها، إبليس الآن له من العبّاد ما لا حصر له ولا عد، أنواع وألوان العبادة التي تصرف كلها بلا استثناء التي تصرف لغير الله إنما هي في حقيقتها تصرف إلى الشيطان، فالشيطان صاحب مملكة كبيرة في الدنيا، وله أتباع وله عز، لو أن الله ما استجاب له لكان خيراً له ، وهذا حتى تعلم أنت يا عبد الله انتبه! هذه مسألة لها أثر في مسلكياتك ، في طاعتك وعبادتك وإقبالك على ربك، إن سألت ربك حاجة فمنعها الله عنك، فمنع الله لها عنك ليس لأنه لا يحبك، بل قد يكون منعه سبحانه إياها لك لأنه يحبك، يحبك أن تتضرع إليه وأن تسأله وأن ترفع يديك إليه وأن تلح في السؤال، وقد قالوا قديماً: "من أكثر القرع دخل" من بقي على باب البيت ويقرع ولا ينتهي عن القرع أخيرا يدخل، فإبليس لو أن الله ما استجاب له لكان شره ووباله أقل مما وصل إليه، قال: "هكذا كل من سأله تعالى به على ما لم يكن عوناً له على طاعته كان سؤاله مبعداً له عن الله ﷻ"، فالله استجاب كما قلنا لإبليس لأنه ربه، وسأله على أنه رب ولم يسأله على أنه عبد، وهنا مسألة ما الذي جعل إبليس كافراً ؟ الخوارج قالوا: لأنه فعل معصية، وفعل كبيرة، هذا ليس بصحيح، لأن آدم استجاب أيضا، الله أمر ونهى، نهى آدم عن الأكل، وأمر إبليس أن يسجد،

هنا انتبه! قال أهل العلم: "ترك المأمور أشد من فعل المحذور"، لأن عاقبة من ترك المأمور –إبليس– كانت جهنم خالداً مخلداً فيها، ومرتكب المحذور عاقبته التوبة والإنابة، وهو آدم عليه السلام، لذا قالوا فيها العلماء وألف فيها شيخ الإسلام وبرهن على أن ترك المأمور مقدم على فعل المحذور من (خمسة وثلاثين) وجهاً، وللآن هذه الرسالة لم تطبع، فترك المأمور أشد من فعل المحذور، لو أن واحدا يصلي ويفعل المعاصي والكبائر، وآخر لا يفعل المعاصي ولا يصلي، في الشرع من الأحسن؟ المصلي الذي يفعل الكبائر أم الذي لا يفعل الكبائر ولا يصلي؟ الذي يصلي ويفعل الكبائر، لماذا؟ لأن ترك المأمور شر من فعل المحذور، وهذه مسألة كثير من الناس لا يفهمها، الناس اليوم لما يمدحون إنسان، يمدحون بأنه لم يسرق لم يزني لم يكذب وهكذا.. ،ولا يذكرون شيئا فيه فعل العبادة، وهذه من الأخطاء التي ينبغي أن نحاربها، إذا أردت أن تمدح أحداً، فالمدح ليس بعدم الفعل، وإنما المدح في فعل الواجبات، فعل الأوامر، ولو وقع منك زلل وخلل، وفعلت بعض المعاصي مع التوبة، الولي لله يمكن أن يعصي؟ نعم يعصي، لكن ولي الله لا يترك أمرا، لذا ينبغي أن نفهم أن ترك المأمور عند الله أشد من فعل المحذور، قال: "فليتدبر العاقل هذا وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامته عليه"، لا يلزم إن استعنت بالله أن تكون استعانتك نافعة لك في أُخراك بل قد تستعين به في دنياك، وقد تكون هذه الاستعانة ليست نافعة لك في آخرتك، لذا قلنا أنك قد تتوجه إليه بالدعاء ولا يستجيب لك من حبه لك، الآن نحتاج إلى تفصيل في جزئية مهمة كثير من الناس لا ينتبهون إليها ، كيف يستجيب الله الدعاء؟ ما معنى استجابة الله للدعاء؟ الله لما يستجيب دعاؤك إما يعطيك ما تريد، وإما يصرف عنك من الشر بمقدار ما دعوت من خير، وإما أن يدخر الدعاء عنده لتكون عبادةً خالصة يوم القيامة يثقل بها موازينك، الدعاء عبادة، معنى الاستجابة ثلاثة أشياء: الشيء الأول: يعطيك ما تريد،

الشيء الثاني: أن يصرف عنك من الشر بمقدار ما دعوت من خير، الثالث: هذه عبادة يثقل به موازين العبد يوم القيامة، فلا تقول أنا دعوت ولم يستجاب لي، والنبي ﷺ يخبرنا أن الله يستجيب للعبد ، "إن الله ﷻ يستجيب للعبد ما لم يقل إني دعوت ولم يستجب لي"، إذا قلت أنا دعوت والله ما استجاب لي، الله لا يستجيب لك، وأما إذا ما قلت هذا وتعلم معنى استجابة الدعاء، وأن استجابة الدعاء لا يلزم إن سألته أن يعطيك ما تريد، وأن من معاني الاستجابة أن يصرف عنك السوء، أو الشر، أو أن يُدخر الدعاء ليكون في صحيفة عملك ويثقل به موازينك يوم القيامة، حين يأتي العبد لا يقول أنا دعوت ولم يستجاب لي، هل هناك صلة بمنزلة العبد عند الله وبين أن الله ﷻ يرزقه ويعطيه ويوسع عليه، لا، {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} ما معنى يقدر؟ يمنع، وما معنى قول الله ﷻ ليونس عليه السلام: {فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ} أي: لن يضيق عليه، ومن ظن أن الله لن يقدر عليه من القدرة هذا كفر، ويونس منزه عن هذا، فظن يونس أن الله لن يضيق عليه لما ابتلعه الحوت، هذا معنى يقدر: يضيق، تقدير من التضييق، وقلت لكم في هذا الدرس الكفار قائم في عقولهم أن الله أعطاني يعني أن الله يحبني، ولذا يقولون وهذا من الشيطان كما أخبر الله عنهم في القرآن: {وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}، مجرد ما تقول أنه الله يحبني لأنه أعطاني، هذا لعدم معرفتك، لا لمنزلتك ولا لمنزلة الدنيا عند الله، ولا لمنزلة الآخرة عند الله ﷻ، أنت تجهل ثلاثة أشياء: تجهل حالك، ظالم لنفسك، وتجهل حقيقة الدنيا التي لو كانت تسوى عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافر شربة ماء، وتجهل حقيقة الآخرة وأنها عطاء خالص لله ﷻ بكرمه ومنّه، أخبرنا ربنا تعالى وهذه نعمة عظيمة وفيها فوائد جزيلة الملائكة يأتون للمؤمنين وهم في قصورهم في الجنان يدخلون عليهم من كل باب، {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ

وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}، بما صبرتم على طاعة الله ﷻ، وهذا من أحب الأعمال إلى الله ﷻ، ولذا ما قلناه في القسم الأول إن أحسن دعاء أن تسأل ربك أن يصبرك على عبادته، أن تستعين به على عبادته، المصيبة أن المؤمن لما يرى نفسه مصلي، وحاجّ، و يعرف بعض الناس من أقاربه وقد يكون أخوه شقيقه عاصي بعيد، هو يدعو ولا يستجاب له ويظن المسكين أن الاستجابة فقط أن يعطيك، وينظر إلى من يعرف ممن هو عاص، ، ويفعل ويفعل والله يعطيه، فيظن أن الله راضي عن فلان وغير راضي عني، هذه مصيبة من المصائب، لما ينظر أنه هو يسأل ربه ولا يعطيه في شدة هذه الحياة، وله قريب عاصي يفعل المعاصي والكبائر فيعطيه، هذا تلبية لحاجة العبد في الدنيا، وليست دلالة على أن الله ﷻ يرضى عنه، فيأتي الجزع، لذا في حقيقة الأمر أن الذي لا يعبد الله ﷻ ولا يستعينه، ويستعينه في شهواته، هذا في حقيقة أمره ما قدر الله حق قدره، وهذا في حقيقة أمره سيء الظن بربه، متى يظهر هذا ؟ قال: "علامة ذلك أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو يجهل حقيقة الأمر إذا رآه سبحانه يرى الله ﷻ يقضي حوائج غيره يسيء ظنه به سبحانه" قال: "وقلبه محشو بذلك وهو لا يشعر"، قلب محشو بإساءة الظن بالله، وأمارة ذلك حمله على الأقدار وعتابه في الباطن لها" يعتب على القدر، لا يرضى بقدر الله، يجزع، المؤمن يُرجع الأمر إلى الله ﷻ، قال: " وقد كشف الله عن هذا المعنى غاية الكشف" هذا مذكور في كثير من الآيات وأشهرها جنس الإنسان، كل الإنسان، قالوا: وأما الإنسان إذا ما ابتلاه اختبره انتبه!، لم يقل الله! قال: وأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه" هذا فرع من فروع الربوبية، وليس هو دعاء خالص لله، هو فرع من فروع الربوبية، {فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ} يعني: أعطاه في الدنيا ومكنه من ملذاته وشهواته ونعمّه، {فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ}، {وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ

عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} ضيق عليه رزقه فيقول ربي أهانن، ماذا قال الله ﷻ؟ كلا، أنا لم أكرم فلان ولم أهن فلان، لا أكرم من أُعطي في الدنيا، ولا أهين من أحرمه رغد الدنيا أنا لم أهنه، كلا ! "ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته"، فكرم الله ﷻ ليس هذا، وذلك كله ابتلاء من ﷻ، ثم قال المصنف -رحمه الله تعالى-: "وبالجملة فأخبر الله تعالى أن الإكرام والإهانة" من الذي يكرمه الله تعالى إكراما حقيقياً، من يعرفه بأوامره ويوفقه لمراضيه، إن وفقك الله لما يرضى وعرفك بأوامره وامتثلت أمر الله ﷻ، فهذا هو الأمر، قال: " فغاية سعادة الأبد في عبادة الله والاستعانة به عليها"، السعادة الحقيقية فيما به اتصال بالنعيم الأبدي الذي تكون في جنة الله، والله راض عنك، هذه هي السعادة الأبدية.

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله تعالى- **القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة، وهؤلاء نوعان: أحدهما: أهل القدر القائلون بأنه ﷻ قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق وإرسال الرسول، وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعدها إعانة مقدورة يسأله إياها، وهؤلاء مخذولون موكلون إلى أنفسهم مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد، قال ابن عباس رضى الله عنهما: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده، النوع الثاني: من لهم عبادة وأوراد، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وأنها بدون المقدور كالموات الذى لا تأثير له، بل كالعدم الذى لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول، فلم تنفذ بصائرهم من السبب إلى المسبِّب، ومن الآلة إلى الفاعل، فقلّ نصيبهم من الاستعانة، وهؤلاء لهم نصيب من التصرف بحسب استعانتهم وتوكلهم، ونصيب من الضعف**

والخذلان بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه لأزاله، فإن قيل :ما حقيقة الاستعانة عملا؟ قلنا: هى التى يعبر عنها بالتوكل، وهى حالة للقلب تنشأ عن معرفة الله تعالى وتفرده بالخلق والأمر والتدبير والضر والنفع، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فتوجب اعتماداً عليه وتفويضاً إليه وثقة به، فتصير نسبة العبد إليه تعالى، كنسبة الطفل إلى أبويه فيما ينوبه من رغبته ورهبته، فلو دهمه ما عسى أن يدهمه من آلافات لم يلتجىء إلى غيرهما، فإن كان العبد مع هذا الاعتماد من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}، أي كافيه.

الشيخ –حفظه الله–: الصنف الثالث: من له عبادة، ولكن الاستعانة لمعتقد فاسد، فالنوع الأول من النوعين المذكورين، له عبادة والاستعانة ضعيفة ،كالنوع الثاني، فقسّم ابن القيم وتبعه المقريزي أن الذي له عبادة وليس له استعانة قسّمهم إلى نوعين: قال أهل القدر المعتزلة، الذين يعتقدون أنهم يخلقون أفعالهم، وأن لطف الله بعباده، محمول على أن الله خلق لك عقلاً وسمعاً وبصراً، وأرسل رسلاً، وأنزل كتباً ومكنك من الفعل، وليس لله إعانة لك على هذا القول فأنت تخلق أفعالك، والعباد هم الذين يخلقون أفعالهم، فنشأ عندهم بهذا السبب ضلال، في حقيقة أمره أنه راجع إلى أنهم ما قدروا الله حق قدره كما ذكرنا، فهذا الصنف لهذا المعتقد الفاسد لا تتوجه قلوبهم إلى ربهم في أن يستعينوا به، لكنهم يعرفون أن الله هو الذي يستحق العبادة، فهم يعبدون الله لكنهم لا يستعينون به، لماذا لا يستعينون به؟ لأنهم يعتقدون أنهم يخلقون أفعالهم، فمن اعتقد أنه يخلق فعله والله ليس له صلة بهذا الفعل، فكيف يستعين به؟ فهذا الصنف على نوعين، النوع الأول: عابد لكنه ليس بمستعين، وهذا النوع قال عنه المصنف –رحمه الله– "مخذولون موكولون

إلى أنفسهم مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد"، وهذا في حقيقة أمره يدور مع الإيمان بالقدر، الإيمان بالقدر على أربعة مراحل، أولاً: أن تؤمن بأن علم الله ﷻ يشمل كل شيء وعلمه بالكليات والجزئيات، ثم أن تعلم أن الله تعالى قد كتب علمه في اللوح المحفوظ، والكتابة في اللوح المحفوظ مكتوبة بصيغة الخبر لا بصيغة الأمر، اللوح المحفوظ غير مكتوب يا فلان افعل، بل فلان يفعل ، لأننا نثبت إرادة للعبد، مع إثباتنا لعلم الله تعالى بها، وإثباتنا أن الله جل وعلا كتبها في اللوح المحفوظ، فالإيمان بالقدر على أربعة أركان، الركن الأول: أن تعلم أن الله ﷻ عالم كل شيء، الركن الثاني: أن تعلم أن الله ﷻ قد كتب كل شيء عنده في اللوح المحفوظ ، الركن الثالث: أن تعلم أن لله مشيئة ومشيئته نافذة، أن لله مشيئة و للعبد مشيئة، ومشيئة الله تعالى نافذة ولا يقع من مشيئة العبد إلا ما وافق مشيئة الله ﷻ، ومشيئة الله هي الغالبة، والأمر الرابع: أن الله ﷻ خالق كل شيء فما يقع شيء في الكون إلا بإرادته سبحانه وتعالى، فالله خلق الخير وخلق الشر، وتكلمنا على هذا الباب فيما مضى، ولذا قال ابن عباس قال: "هؤلاء مخذولون موكلون إلى أنفسهم مسدود عليهم طريق الاستعانة"، قال ابن عباس هذا الخبر أخرجه عبدالله بن أحمد في كتاب (السنة)، واللالكائي في (شرح السنة) وفيه ضعف، قال: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد"، الإيمان بالقدر ميزان للتوحيد، ولذا الذي لا يؤمن بالقدر، ولا يؤمن بأن الله ﷻ يعلم كل شيء، وأن الله ﷻ كتب كل شيء عنده في اللوح المحفوظ، وأن لله مشيئة، هذا قطعاً فيه خلل في توحيده، ولذا قال: "فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده"، هذا نقض لتوحيد الربوبية، فيه خلق لغير الله، ونقض لتوحيد الأسماء والصفات، في علم الله وقدرة الله وأن الله يعلم الأشياء كلها، كذلك فيه نفي لتوحيد العبودية، فالإيمان بالقدر على الوجه الصحيح يجعل العبد مسكيناً ذليلاً بحاجة إلى الله ﷻ في كل شيء من حياته، فإذا فهم القدر على حال مخالف حينئذ تكون من

ثمرات عدم فهم القدر، أن تعبده ولكن لا تستعين به، وهناك قسم ثاني، والقسم الثاني أخف من الفريق الأول، الأول عقيدة فاسدة، الثاني فيه عماء، فيه عدم انشراح صدر للصلة بين الأخذ بالأسباب والاعتقاد بأن الأشياء لها أسباب مادية، وهذا كثير عند الناس هذه الأيام، ولا سيما أن عصر المادة قد طغى، فالقلب لا يلجأ إلى مسبب الأسباب، وإنما القلب متجه دائماً إلى الأسباب، فكثرة اتجاه القلب للأسباب وعدم تعلقه بمسبب الأسباب هو سبب من أسباب عدم التوكل على الله ﷻ، وهذا سبب من أسباب ضعف في الاستعانة، كل الخلق يعلمون أن الله مستحق للطاعة والعبادة، لكن بعض الناس في موضوع الاستعانة عنده ضعف، لأن العبادة عنده ضعيفة، لو أنك رتبت الأولويات وجعلت الرزق مقدماً على العبادات، يربط الساعة لعمله ولا يربطها لصلاة الفجر، الفجر تفوته، لكن وقت الوظيفة لا يفوته، هذا ما استعان بالله ﷻ، هذا ربط قلبه بالأسباب المادية، وما يعلم المسكين أن القليل الذي بارك الله فيه خير من الكثير الذي تنزع منه البركة، يعني راتب ثلاث مئة دينار حلال خالص أحسن من راتب ثلاث آلاف دينار بالحرام، مرة درست في اليادودة، وجاء رجل بعد الصلاة احتفى بي كثيرا، وطلب مني أن أزوره، فزرته فقال لي أنا مدير فرع في بنك ما، ولي شأن في البنك وراتبي أكثر من ألفي دينار، والكلام قديم، فعزمت أن أتوب إلى الله ﷻ، قال وعملت مترجم لغة الانجليزية، قال راتبي ثلاث مئة دينار، قال والله أن ثلاث مئة دينار في حياتي العملية، أحسن من ثلاث آلاف دينار التي كنت آخذها، في الثلاث آلاف دينار عندنا في كل أسبوع حفلتين ولازم كل حفلة الزوجة تكون لابسة فستان خاص، اليوم الزوجة تابت مثلي وتلبس جلباب، حياة كاذبة، مظاهر جوفاء، ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، حياة تمثيل ما لها وجود في الواقع على أصحابها، فأنت عندما تستعين بالله ﷻ وتقف عند أوامره، وتترك الحرام، الله يكرمك، كيف يكرمك هذا ليس شأنك،

تأتي لأمر الله ﷻ الله ﷻ يكرمك، قال: "النوع الثاني من له عبادة وأوراد لكن حظه ناقص في التوكل والاستعانة لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر وأنها بدون المقدور كالموات"، هذا صنف له شيء من الاستعانة لكن الدنيا أكلت قلبه، واحفظ عني هذه العبارة حتى أختصر الكلام لأن حقيقة الاعتماد في القلب إلى الأسباب قد توصل للشرك الأصغر، بل قد توصل للشرك الأكبر، من اعتمد على الأسباب فقد كفر، ومن تركها فقد جنّ، تارك الأخذ بالأسباب مجنون، والمعتمد عليها كافر، والمطلوب؟ أن تأخذ بها وقلبك معلق بالله ﷻ، قالوا: "أجسامهم في الحانوت، وقلوبهم معلقة بالله "ﷻ، والجسد في الحانوت يأخذ بالأسباب يبيع ويشتري، والقلب معلق بالله ﷻ، من ترك الأخذ بالأسباب مجنون، وما أحد يقبل هذا، لكن للأسف في العبادة يقبلون، يقال له صلي قال لما يهديني الله، أما في الرزق يأخذ بالأسباب، والله لو ذهب حتى يتوضأ وفتح الحنفية وما نزل ماء فعلا لم يهديك الله، ويكون فعلا كلامك صحيح، لكن الأسباب مهيئة لك، لو ذهبت لتتوضأ الماء سينزل، فلماذا في الرزق تقوم وفي العبادة لا تقوم، القلب أكلته الذنوب والقلب متعلق بالأسباب، وليس متعلق بالله ﷻ ، مما ينبغي أن يذكر قال: "وهؤلاء لهم نصيب من التصرف" والنفوذ بحسب استعانتهم وتوكلهم، ونصيب من الضعف والخذلان، بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم يخذلون بحسب ضعف توكلهم واستعانتهم بالله ﷻ ، قال: "ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل"، كلام ابن القيم نُقل ناقصاً، يقول الإمام ابن القيم وكلامه دقيق : "لو توكلت على الله حق توكلك وقد أمرك الله تعالى بأن تزيل الجبل فاستعنت به لزال"، حذف المصنف منه "لو أن الله أمرك بأن تزيل الجبل"، ونحن متيقنون لو أن الله أمرنا أن نزيل جبلاً، وتوكلنا على الله حق توكله لزال الجبل، لكن هنا قال: "ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه لأزاله"؛ فأسقط المصنف "وأمر الله تعالى به"، قال:

"فإن قيل ما حقيقة الاستعانة عملاً؟ الطريقة العملية كيف استعين بالله؟ قال: "الاستعانة التي يعبر عنها بالتوكل" ما هو التوكل؟ التوكل له ركنان: الركن الأول: الاعتماد على الله فيما ينفعك تحصيلاً، الاعتماد على الله في تحصيل مصالح ودرء المفاسد، والأمر الثاني: الاعتماد وحسن الثقة، وحسن الظن بالله أن الله ﷻ سيفعل ذلك، تعتمد أولا وتحسن الظن به ثانيا، فإن حصلت الاعتماد أولا، وحسنت الظن بربك ووثقت بأن الله سيحصل لك ذلك فأنت حينئذ متوكل على الله ﷻ، الاعتماد مع حسن الثقة بالله ﷻ ، قال: "وهي حالة للقلب" التوكل عبادة من العبادات لكن من أي أنواع العبادات؟ من العبادات القلبية، التوكل ليست عبادة بدنية، وليس التوكل عبادة قولية، التوكل عبادة قلبية، لينشرح صدرك بأن الله هو الذي يكفيك، وهو يغنيك وتثق به ﷻ وتفزع إليه وتلجأ إليه ﷻ، والأمور تتضح بالمثال، فهناك مثال تقريبي ذكره المصنف في بيان التوكل، قال: "فتصير نسبة العبد إليه كنسبة الطفل إلى أبويه" الطفل وهو عاجز صغير لا يتحرك أو لا يتكلم ليست فيه قوة، هذا الطفل لا يستغني عن أبويه، فإذا خاف ينادي على أمه أو أبيه، وإذا أصابه ألم أو وجع نادى على أبويه، فهذا المثل التقريبي حال العبد مع ربه إذا خاف، إذا أصابه فزع، إذا فُجع بشيء، أصابه ألم، المتوكل يفزع إلى الله، هذا مثل تقريبي يبين لك أن التوكل هو أن تعلم أنك عاجز، وأن ربك الذي تعتمد عليه قادر، ليس فقط تعتمد عليه، الطفل يعتمد على أبويه، ويعلم أنه حريص به، يثق بأبيه، فالعبد مع الله ﷻ هو يعتمد عليه ويثق به ﷻ ، فالمؤمن يكون تعلقه بالله ﷻ عند الشدائد أشد من تعلق الطفل بأبيه، وهذا معنى قول الله ﷻ: {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}.

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله– "**القسم الرابع: من له استعانة بلا عبادة، وتلك حالة من شهد تفرد الله بالضر والنفع ولم يدر، ما يحبه ويرضاه فتوكل عليه في حظوظه فأسعفه بها، وهذا لا عاقبة له سواء كانت أموالاً أو رياساتٍ، أو جاهاً عند الخلق، أو نحو ذلك، فذلك حظه من دنياه وآخرته**":

الشيخ –حفظه الله–: هذا القسم الرابع من له استعانة ولكن استعانته بلا عبادة، واستعانته هذه التي لا ينبني عليها عبادة، هي استعانة خالصة في الدنيا وحظوظها وشهواتها، دون الاستعانة بالله على الآخرة، القلب مليئ بالاستعانة بالله لكن على حظوظ الدنيا، قال: " وتلك حالة من شهد تفرد الله بالضر والنفع ولم يدرِ، ما يحبه ويرضاه"، ما توجه إلى الله ﷻ ، وهذا ينطبق عليه قوله تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ} الله كريم، توجه إليه بعبادة قليلة فالله جل في علاه يفتح عليك ويحبب إليك عبادته، كثير من الناس يسألون سؤالاً وهو سؤال مهم، ولا يعرف جوابه إلا العاقل، يقول: عند إقبالي على الله وأول ما أعبد الله ﷻ في بداية طاعتي لله ﷻ أجد رقةً في قلبي، وأجد حسن حال، وأجد أُنس بالله ﷻ، ولما ثبتُّ على العبادة ذهبت الرقة، ذهب الأُنس بالله، أصبحتُ لا أشعر به، ما هو السر؟ السر أن الله ﷻ حبب إليك هذه العبادة لتثبت عليها، ولكنك أنت ما رعيتها حق رعايتها، ففقدتها، أصبحت العبادة بالنسبة إليك عادة، تقرأ الفاتحة، وتقرأ سورة وكل ركعة تتقرأ سورة هي هي، وتركع تقول" "سبحان ربي العظيم" دون أن تنوع في الأذكار وتسجد، وتطوف على نفس العبارات، فألِفتها، فإذا ألِفت العبادة يصبح الملل، ولذا قال أهل العلم: "تنوع الأذكار له أثر على القلب، كتنوع الأطعمة على البدن"، لو أنك نوعت وفعلت كما فعل النبي ﷺ لبقيت اللذة التي وجدتها في البداية، لبقيت معك إلى النهاية ،{نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ} الله يزيدك، الحرث الله يبارك الله فيه، الله شكور، أي:

يجازيك بالشيء الكثير على الفعل القليل، العرب تقول: الشاةُ شكور، شكور: أي تعلفها قليلاً وتعطيك حليباً كثيرا، فإذا علفت الشاة بشيء قليل فتعطيك حليب كثير، فالعرب تسميها شاة شكور، الله شكور سبحانه، إن توجهت إليه بصدق واخلاص واتباع، بدأ يبين المؤلف مباشرة وهذا بيان جميل وترتيب الأشياء، فالله ﷻ لا يخذلك، فالله يعطيك من الدنيا، لكن هذا العطاء عند هذا الصنف لا أثر له فيما ينفعه في الآخرة، وكما قلنا فالأثر الذي ينفع إنما هو ما يتصل بالنعيم الأبدي، فهذا الصنف الذي له استعانة، استعانته وحظه منها إنما هو محصور في ملذات الدنيا، هذه الأصناف الأربعة، ثم ذكر العبادة التي لا تتحقق إلا بأصلين: الاتباع والإخلاص، وهذا بإذن الله تعالى سنشرحه في درسنا القادم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

